جامعاتنا في السباق العالمي

أ.د/ محمد سيد محمد(*)

من فضائل "التكنولوجيا" الحديثة وفضائل الاتصالات والعولمة، نشر البيانات والإحصاءات الدولية، تلك التي تزودنا بالمعرفة من جانب، وتبين لنا مواقعنا الثقافية والاقتصادية والحضارية من جانب آخر.

ولعل المؤشر السنوي الدولي لأفضل خمسمائة جامعة يعطي لنا فرصة للتأمل والنظر ومراجعة الذات، والبحث عن سبل الفوز في السباق العالمي المتسارع الخطى مع كثرة المتسابقين.

يقول خبراء التربية إن الأهداف الرئيسة لكل جامعة تنقسم إلى ثلاثة أهداف تفصيلية:

١- أهداف معرفية: وهو ما يتمثل في الدور التعليمي للجامعة.

٢- أهداف مهارية أو مهارات: وهذا يتمثل في إعداد الخريجين ذوي المهارة لخدمة التنمية في المجتمع.

٣- أهداف وجدانية: وتتمثل في القيم العلمية في الجانب الأخلاقي.

هذه الأهداف الرئيسة الثلاثة يضمها إطار عام هو البحث العلمي، وذلك ما يفسر قول بعض الباحثين بأن الدور الرئيس للجامعة هو مساعدة المجتمع الذي تنتمي إليه في اللحاق بالعصر.

يبدأ مفهوم البحث العلمي عند بوابة الجامعة للطالب الذي يلتحق بها، ويظل التراكم هو السمة الأساس لمفهوم البحث على المستوى الفردي لطلاب الدراسات العليا ولأعضاء هيئة التدريس للترقية، وعلى مستوى موضوعات البحوث وتطويرها. وتطور أساليب التقييم. هذا التراكم هو جوهر الحياة الجامعية. وهو روح الجامعة وهو ميدان السباق ومجال التقدم.

والسؤال الجوهري والمباشر في ذات السياق هو: كيف يمكن لجامعاتنا في بلدان العالم الإسلامي أن تحظى بنصيب عادل بين أفضل الجامعات العالمية؟ هذا السؤال المباشر ينبغي الإجابة عليه بوضوح شديد وبصراحة أشد. ويتطلب ذلك أن نرى بعين ناقدة معوقات

(*) عميد المعهد الكندى للإعلام بالقاهرة – رئيس اللجنة الإعلامية برابطة الجامعات الإسلامية.

البحث العلمي في بلادنا الإسلامية وأن نقترح الحلول لإزالة هذه المعوقات فتنطلق جداول البحوث والابتكارات وتترابط لتشكل نهراً علمياً يبرز جامعاتنا في مواقع مرموقة عالمياً.

المعوق الأول: هو حالة التعليم قبل الجامعي، وضرورة أن يتخرج الطلاب منه وقد أصبح معظمهم قادراً على التصور لما يريد. وقد اكتسب مهارات الاستمرار في التعلم الذاتي والتقويم الذاتي. هذا الطالب أو الأغلبية منهم يمثلون المجتمع الجامعي الجديد والمتجدد.

المعوق الثاني: هو حالة التعليم الجامعي وفي هذه الحلقة ينبغي أن يتعلم الطالب كيف يكون مبدعا، يتعامل مع أوعية المعلومات ليصبح مبتكرا مبدعا. إذا استطعنا في جامعاتنا أن نعلم طلابنا بأسلوب الكينونة وليس بأسلوب التملك نكون قد خطونا أولى خطوات التقدم.

ما معنى أسلوب الكينونة؟ وما الفارق بينه وبين أسلوب التملك؟

أحد أساتذة علم النفس اسمه "ايرك فروم" **Erick Fromm** في كتابه (**To have or to be**) الذي ترجمته سلسلة عالم المعرفة بعنوان: "الإنسان بين الجوهر والمظهر"، والمؤلف عندما يتناول هذا الموضوع، موضوع الفروق بين التملك والكينونة في الحياة اليومية يبدأ بالتعلم، فيقول: في أسلوب التملك ينصت الطلاب للمحاضرة، ويسمعون الكلمات، ويفهمون معناها، وبناءها المنطقي، ويمكن أن يسجلوها حرفيا في مذكراتهم، كل هذا من أجل أن يحفظوا ما يكتبون في ذاكرتهم ويجتازوا الامتحان بنجاح. ولكن المحتوى لا يصبح جزءا من نظامهم الفكري، يغنيهم ويوسع آفاقهم. إنهم عوضاً عن ذلك يحولون الكلمات التي يسمعونها إلى تجمعات فكرية ثابتة أو نظريات يختزنونها كما هي. ويظل الطلاب ومحتوى المحاضرات غريبا كل منهما عن الآخر، وكل ما في الأمر أن يصبح الطالب مالكاً لمجموعة من العبارات والصيغ.

والطلاب في أسلوب التملك ليس أمامهم إلا هدف واحد، أن يتشبثوا بما تعلموا أما بتثبيته جيدا في ذاكرتهم، وأما بالحفاظ على مذكراتهم، ليس عليهم أن ينتجوا شيئا جديدا.

أما الطلاب في أسلوب الكينونة فإن للدراسة، طبيعة مختلفة، فهم يحضرون المحاضرات وقد أعملوا فكرهم في المشكلات التي ستعالجها المحاضرات قبل أن يحضروها، وفي ذهنهم

بشأنها أسئلة يطرحونها وقضايا يثيرونها، فالموضوع يشغل بالهم ويثير اهتمامهم وبدلا من أن يكونوا مستقبلين سلبيين للكلمات والأفكار فإنهم ينصتون ويستمعون، وأهم من ذلك فهم يستقبلون ويتجاوبون بطريقة ايجابية نشيطة ومثمرة، فما يستمعون إليه ينشط فيهم العملية الفكرية، ويثير في أذهانهم أسئلة وأفكارا وآفاقا جديدة. إن الاستماع إلى المحاضرة في هذه الحالة عملية حية، لأن الاستماع إلى المحاضرة يحدث تلقائيا صورة من صور التجاوب مع ما يسمعون. إن الأمر عندهم ليس مجرد الحصول على معلومات يحملها الواحد منهم إلى المنزل للحفظ، وإنما كل طالب قد تأثر وتغير، كل واحد أصبح بعد المحاضرة غير ما كان قبلها، وغني عن الذكر إن هذه الطريقة للتعلم لا يمكن أن تنجح أو تسود إلا إذا كانت المحاضرة تقدم مادة فكرية منبهة للعقل، فالكلام الأجوف يستحيل التجاوب معه.

المعوق الثالث: هو التخلص في مجال البحث العلمي من جاذبية الظروف الاجتماعية المتخلفة والتي تكاد تشبه الجاذبية الأرضية لا تتيح التحليق عاليا إلا بالعلم والجهود الشاق المستمر.

يقول مالك بن نبي المفكر الجزائري الراحل في كتابه "مشكلة الثقافة" الذي ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور عبد الصبور شاهين: "إن الحياة الاجتماعية في البلدان المتخلفة مغلفة بلفائف من انعدام الفاعلية والنقائص من كل نوع. وتبدو هذه اللافاعلية من تلقاء ذاتها لنظر المرء في صورة انعكاس لثقافة معينة، وهي فضلا عن ذلك تبدو في مظهر مزدوج هو المظهر النفسي الفردي والمظهر الاجتماعي الجماعي. فطالب الطب المسلم الذي يذهب لتلقي علومه في إحدى العواصم الأوروبية يحصل على نفس الشهادة التي يحصل عليها زميله الانجليزي مثلا بل إنه كثيرا ما يتفوق عليه، ولكنه لا يحصل غالبا على فاعليته. أي طريقة سلوكه وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية".

هذا الذي قاله مالك بن نبي في منتصف القرن العشرين الميلادي يتأكد لنا في مشارف العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين باعتباره ظاهرة من ظواهر الحياة العلمية بين الشمال والجنوب.

ولكن عوائق الظروف والقيم الاجتماعية المتخلفة متعددة في تعويق البحث العلمي تعددا كبيرا. إن ظاهرة هجرة العقول من بلداننا إلى أوروبا وأمريكا ظاهرة تستحق

البحث، وإعادة النظر بخاصة أن التكنولوجيا الجديدة وفرت سبل الاتصال والتفاعل بين هؤلاء المهاجرين ومجتمعهم الأم أو الأصلي الذي هاجروا منه.

والأمثلة في غيبة الموضوعية والحيادية والعدالة، في اللجان العلمية للترقيات وفي منح الجوائز التقديرية تكاد لا تحصى، وهي فساد وإفساد لروح التقدم ولمجتمع البحث العلمي والابتكار.

المعوق الرابع: هو التمويل. وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن قلة الموارد هي سبب تأخر البحوث في بلداننا ولكن ذلك غير صحيح وغير دقيق. ونستطيع القول بأن إهدار الموارد هو المحور الرئيس في عدم إنجاز بحوث متقدمة. لقد أنجزت الهند بحوثاً متقدمة في ظل موارد محدودة. وأنجز الاتحاد السوفيتي ثورة بحثية في ظل التقشف عقب الحرب العالمية الثانية. ولا شك أن النجاح والتفوق في البحث العلمي يجذب مانحين وممولين.

المعوق الخامس: هو غلبة البحوث الفردية وتكرارها وقلة البحوث الجماعية وروح الفريق، وندرة التنسيق والتكامل بين الجامعات ومراكز البحوث في الوطن الواحد، فضلا عن التنسيق بينها والتكامل على مستوى العالم الإسلامي.

إنني أحلم وأدعو الله القادر أن تتعاون الجامعات الإسلامية في مجال البحث العلمي وأن تتكامل وأن تصدر "بروتوكولاً" منظما لهذا التعاون العلمي المثمر والمفيد.